

قضايا سياسية وفكرية عند الشيخ عبد العزيز الثعالبي

Political and Intellectual Issues in Sheikh Abdelaziz Thaalbi

مشرابي جمال الدين¹

جامعة بن خلدون، تيارت djameleddine.mechraoui@univ-tiaret.dz

تاريخ الإرسال: 2025/08/09 تاريخ القبول: 2026/01/20 تاريخ النشر: 2026/01/31

الملخص باللغة العربية:

نعرض من خلال هذه الورقة العلمية أهم الرؤى الفكرية عند الشيخ عبد العزيز الثعالبي كونه أحد أهم أعمدة الإصلاح بتونس خلال القرن العشرين ، ونركز على الجانب السياسي للشيخ والذي تأثر بشكل مباشر بالظاهرة الاستعمارية أو ما عرف بنظام الحماية بتونس ، إذ يبين لنا الثعالبي أبعاد هذا الوجود الاستعماري ويجرده من المثالية التي ادعتها المدرسة الكولونيالية والتي راحت تبرر الفعل الاستعماري ، وتتطرق أيضا هذه الورقة لقضية الحضارة والتحضر البعيدة كليا عن حركة الاستعمار ، ونبين في المحور الأخير التجربة الدستورية للشيخ والأبعاد الفكرية كمسألة النخبوية والعمل الوحدوي الذي سعى لتحقيقه.

الكلمات المفتاحية: عبد العزيز الثعالبي ؛ الحركة الإصلاحية ؛ الفكر السياسي ؛ تونس ؛ الحماية الفرنسية.

Abstract: This research paper presents the key intellectual visions of Sheikh Abdelaziz Thaalbi, regarded as one of the foremost pillars of the reform movement in Tunisia during the twentieth century. The study focuses primarily on the political dimension of Thaalbi's thought, which was directly influenced by the colonial phenomenon, known as the Protectorate System in Tunisia. Thaalbi exposes the true nature of the colonial presence, stripping it of the idealism promoted by the colonial school, which sought to legitimize colonialism. The paper also addresses the question of civilization and modernity, which, according to Thaalbi, stand entirely apart from the colonial enterprise. In the final section, we examine the constitutional experience of the Sheikh, shedding light on the intellectual foundations of his political project,

◆ المؤلف المرسل

including his elitist perspective and unifying vision, which he persistently sought to realize.

Keywords: Abdelaziz Thaalbi; Reformist Movement; Political Thought; Tunisia; French Protectorate.

مقدمة:

يعتبر الشيخ عبد العزيز الثعالبي أحد أبرز رموز الفكر الإصلاحي والحراك السياسي في تونس مطلع القرن العشرين ، إذ مثّل نقطة تقاطع بين المرجعية الدينية التقليدية المستمدة من جامع الزيتونة ، وبين روح الانفتاح على الأفكار الحديثة المستوحاة من تجارب النهضة في المشرق العربي وأوروبا.

لم يكن مشروع الثعالبي مجرد دعوة إصلاحية دينية كما عند رواد النهضة ، بل تبلور في إطار رؤية سياسية متكاملة ، تجمع بين العمل الحزبي والدعوة إلى الوحدة الوطنية ، ومواجهة المدرسة الكولونيالية فكرياً وسياسياً ، فضلاً عن توظيف المرجعية الإسلامية في مواجهة الاستعمار الفرنسي دون الوقوع في الجمود أو التقوقع.

يعتبر هذا الأخير في نظر العديد من المؤلفين أبو النهضة التونسية الحديثة الثاني باعتبار خير الدين التونسي هو الأب الأول ، كان قد كرس الثعالبي كتاباته لإثبات الوجود ، والدفاع عن الهوية الوطنية الإسلامية ، وقد عرف عنه تشبعه بالأفكار الإصلاحية ذات التوجه الإسلامي وتميز ببعد النظر كما تبينه آراءه السياسية ، لذلك يأتي هذا المقال ليناقد أبرز القضايا الفكرية والسياسية التي أثارها الثعالبي في كتاباته ونشاطه العملي ، مثل: العلاقة بين الدين والسياسة ، الموقف من الغرب الاستعماري ، دور النخبة في العمل السياسي ، إشكالية الإصلاح ، ومسألة التنظيم السياسي عبر الحزب الدستوري ، وذلك ضمن سياق تاريخي اتسم بصراع حاد بين مشاريع النهضة ومشاريع التغريب الاستعماري.

كما يسعى المقال إلى تحليل موقف الثعالبي من الأطروحات الكولونيالية التي حاولت شرعنة الاحتلال عبر خطاب "تمديني" ، والكيفية التي استخدم بها الثعالبي التراث الإسلامي والتاريخي لدحض تلك السرديات ، في محاولة لبناء مشروع وطني مستقل يقوم على الهوية ، والعدالة ، والمشاركة السياسية.

انطلاقاً مما سبق ذكره نطرح الإشكال التالي: إلى أي مدى تمكن عبد العزيز الثعالبي من تجريد نظام الحماية الفرنسية من ادعاءاته "التمدينية" ، وما حدود نجاح تجربته الدستورية في تحقيق مشروع سياسي يجمع بين البعد النخبوي والقاعدة الشعبية ؟ وللإجابة على هذا الإشكال اتبعنا المنهج التاريخي التحليلي ، من خلال تتبع السياق التاريخي الذي نشأ فيه فكر عبد العزيز الثعالبي ومختلف محطات نضاله السياسي ، مع

تحليل نصوصه وكتاباتاته ، خاصة كتاب تونس الشهيدة ومقالات في التاريخ القديم ، إضافة للمنهج المقارن في بعض المحطات لمقارنة تصوراته ببعض معاصريه داخل الحركة الوطنية التونسية ، وأما أهداف الدراسة التي نسعى للوصول إليها فهي :
- إبراز خصوصية الفكر السياسي لعبد العزيز الثعالبي في مقاومة الاستعمار الفرنسي .
- تحليل تجربته الدستورية باعتبارها محاولة لبناء مشروع سياسي وطني .
- دراسة جدلية النخبوية والجماهيرية في فكره وممارساته ، وما ترتب عنها من نتائج على الحركة الوطنية التونسية .

وتتمحور هذه الدراسة حول المحاور الآتية: الحماية الفرنسية على تونس ، عبد العزيز الثعالبي ؛ نظرية التخلف والزامية الخضوع - أبعاد الوجود الفرنسي في تونس بين الخطاب الكولونيالي والرؤية النقدية للثعالبي - التجربة الدستورية عند الثعالبي: بين النخبوية والرهان على الوحدة الوطنية .

1- الحماية الفرنسية على تونس

كانت تونس سياسيا تحت حكم الأسرة الحسينية ، ورغم تبعيتها للباب العالي (الدولة العثمانية) إلا أنها تمتعت باستقلال ذاتي ذو صلاحيات كبيرة ، حيث كان الباي التونسي يجمع السلطتين التنفيذية والتشريعية ، ولعل أبرز باياتها خلال فترة ما قبل الحماية (المشير أحمد باي ومحمد باي صاحب قانون عهد الأمان ، والصادق باي) وقد عرف عنهم العديد من الإصلاحات السياسية والاقتصادية الثقافية¹ ، وقد كانت الوضعية التونسية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر تثير مطامع الأوروبيين نظرا لخيراتها الزراعية ومواردها البحرية وموقعها الاستراتيجي وأهمية مرفأ بنزرت الرابط بين الشرق والغرب ، هذا إضافة للحاجة الملحة عند فرنسا وبريطانيا في إيجاد أسواق جديدة للإنتاج المحلي الأوروبي ، واستثمار فوائض رؤوس الأموال التي ضاقت عنها السوق الأوروبية.²
وتجدر الإشارة إلى أن تلك الإصلاحات التي باشرها البايات منذ منتصف القرن التاسع عشر (مثل عهد الأمان 1857 ودستور 1861) ، اضطرتهم إلى اللجوء إلى الاقتراض من البنوك الأوروبية ولاسيما الفرنسية ، وبدأت عمليات الاقتراض متتالية ونتيجة لذلك ، تراكمت الديون الخارجية على الخزينة التونسية ، خصوصا مع سوء التسيير وفساد بعض المسؤولين ، كمصطفى خزندار (الذي كان بمثابة وزير المالية حاليا) المعروف بفساده ،

1 أحمد بن أبي الضياف ، اتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان ، م 2 ، ج 4 ، الدار العربية للكتاب ، المنار-تونس ، د.س ، ص ، ص: 11 ، 233.

2 علي محجوبي ، انتصاب الحماية الفرنسية بتونس ، سراس للنشر ، تونس ، 1986 ، ص ، ص: 26 ، 31.

وبحلول سبعينيات القرن التاسع عشر ، وصلت ديون تونس إلى حدود 125 مليون فرنك ، وهو مبلغ ضخم جدًا مقارنة بمداخيل البلاد ، فعجزت الدولة عن دفع فوائد القروض ، ففرضت الدول الدائنة (فرنسا ، بريطانيا ، إيطاليا) لجنة مالية دولية ("الكومسيون المالي" في يوليو 1869) للإشراف على موارد الدولة التونسية مباشرة ، هذه اللجنة سيطرت على الجمارك ، الضرائب ، والموارد الأساسية ، مما أضعف سيادة الباي ، وعليه تراجع الإنتاج المحلي وركد الاقتصاد لتدخل البلاد في أزمة حقيقية وهو الأمر الذي فتح المجال أمام فرنسا للاستيلاء على البلاد متحججة بمسألة القروض ، فاستعملت أزمة الديون كذريعة لإظهار أن تونس عاجزة عن إدارة ماليتها ، وبالتالي فهي بحاجة إلى "حماية" أجنبية³.

مع تزايد التنافس الأوروبي توصلت القوى الإمبريالية إلى اتفاقات إثر مؤتمر برلين (13-13 جويلية 1878) سمحت من خلاله بريطانيا لفرنسا بفرض حمايتها على تونس مقابل هيمنتها على قبرص ، وأيد المستشار الألماني "بيسمارك Otto von Bismarck" الحماية الفرنسية على تونس أيضا لصرف نظر الفرنسيين عن الألبان واللبورين التي ضمتها ألمانيا منذ 1870 ، وعليه كانت فرنسا مبدئيا قد ضمنت الموقف الأوروبي وهي تنتظر الفرصة المناسبة لبدأ العمل ، وبعد المناوشات التي حدثت على الحدود بين القبائل التونسية والجزائرية على الحدود (فيفري-مارس 1881) تذرعت الحكومة الفرنسية بهذه الحجة واستغل "جول فيري Jules François Camille Ferry" هذا الوضع وبسطه أمام البرلمان ليحظى بالموافقة على الحملة العسكرية بحجة معاقبة القبائل التونسية القاطنة على الحدود ، وفي يوم 24 أبريل 1881 تسربت كتيبة تضم 35000 رجلا من الجزائر إلى تونس وبدأت في احتلال المدن والمناطق وفي 12 ماي استطاعت القوات الفرنسية الدخول لقصر باردو ليتم على إثر ذلك توقيع معاهدة استسلام تكرر السيطرة الفرنسية على الإيالة⁴.

3 Eric Toussaint, "Debt: how France appropriated Tunisia," CADTM, <https://www.cadtm.org/Debt-how-France-appropriated>, accessed September 26, 2025

4 علي محجوبي ، مرجع سابق ، ص ، ص: 35 ، 40 ، 44.
معاهدة باردو: سميت بهذا الاسم انطلاقا من مكان عقدها ، حيث كان قد عسكر الفرنسية بالقرب من مدرسة باردو الحربية وتوجهوا بمعاهدة استسلام للباي مانحين إيّاه مهلة 5 ساعات للتفكير في بنودها المجهزة سافا ، وبعد ساعتين خرج الباي وقد أبدى موافقته ، وقع عليها الصادق باي والجنرال بريار Bréart قائد الحملة الفرنسية إلى جانب المقيم العام الفرنسي ، وقد نصّت المعاهدة على أن الاحتلال مؤقت وأن القوات الفرنسية سوف تحتل فقط الجهات التي تراها لازمة لتوفير الأمن وأن هذه القوات سوف ترحل عندما تكون الإدارة التونسية قادرة على حفظ الراحة والأمن والنظام وأن فرنسا ملتزمة

كانت تونس أول تجربة لنظام الحماية في تاريخ الاستعمار الفرنسي ، استهدفت من ورائها اسكات المعارضة الدولية التي كان من الممكن أن تعارض الاحتلال أو الضم المباشر ، ثانيا اسكات المعارضة الداخلية التي من شأنها أن تقف ضد النفقات المالية التي يكلفها الاحتلال ، فمن ميزات نظام الحماية أنَّ تسيير شؤون الإدارة والرعية سيكون من شأن الدولة المحمية.⁵

وأمام هذا الوضع المزري الذي فرض على تونس واقعا سياسيا جديدا ظهرت مجموعة من المقاومات الشعبية الراضة للنفوذ الأجنبي بالبلاد كقبائل الخمير بالشمال ومقاومات صفاقس وقابس ، والمقاومة بالساحل وغيرها ، لكنها فشلت فأخذت المقاومة مع مطلع القرن العشرين شكلا آخر ذو طابع سلمي فكري حيث ظهرت نخبة من التونسيين التي بدأت تسعى لإصلاح الوضع بقوة القلم واللسان ، رغم اختلاف مشاربها الأيدولوجية ، وعليه كان الشيخ عبد العزيز الثعالبي⁶ النموذج الإصلاحي الأول بتونس أو كما لقب بالأب الثاني للنهضة التونسية الذي عالج المشكلات التي تعيق الأمة التونسية ، وعلى رأسها الواقع السياسي ، وشارك في الحركة المطالبة وتأسيس التنظيمات -كما سنبين- وجاءت كتاباته على كم كبير من القضايا الفكرية وأبرزها نظرية تخلف الشعوب المغاربية وقابليتها

بحماية الباي وأسرته وأنه لا يحق للباي أن يعقد أدنى عقد مع أجنبي دون علم فرنسا وسينوب عن فرنسا وزير مقيم فرنسي يراقب وينفذ ما تضمنته المعاهدة وأن على حكومة الباي أن تتعهد بمنع إدخال الأسلحة والمستلزمات الحربية من خارج تونس نحوها. ينظر: عبد الله الطاهر ، الحركة الوطنية التونسية ، دار المعارف للطباعة والنشر ، ط 2 ، سوسة ، تونس ، د.س ، ص: 25.

5 صلاح العقاد ، المغرب العربي في التاريخ الحديث والمعاصر ، الجزائر تونس المغرب الأقصى ، ط 6 ، مكتبة الأنجلومصرية ، مصر ، 1993 ، ص: 190.

6 **عبد العزيز الثعالبي: (1876-1944)** داعية الإصلاح والتجديد ومناضل ضد الاستعمار الفرنسي وضد أعداء الدين الإسلامي ، ولد بتونس في 05 سبتمبر 1876 ، ونشأ في كنف جده عبد الرحمان الثعالبي من أقطاب الجزائر وساداتها ، فحفظ القرآن وتعلم مبادئ العلم إلى أن تخرج من جامع الزيتونة في 1896 ، وتردد على المدرسة الخلدونية حتى تحصل على الدراسات العليا ، كان له نشاط سياسي طويل وأفكار إصلاحية تجديدية ، دعا للوحدة ونشط في المجال الصحفي من خلال كتاباته ومقالات بمختلف الجرائد ، كتب عدة مؤلفات أبرزها "تونس الشهيد" و"روح التحرر في القرآن" ، وافته المنية في الفاتح من أكتوبر عام 1944 رحه الله ، ينظر: مجموعة من المؤلفين ، المعجم الجامع في تراجم العلماء وطلبة العلم المعاصرين ، مرقم آليا غير مطبوع على موقع المكتبة الشاملة ، ص 159.

<https://shamela.ws/book/2080> تاريخ الدخول 2025-07-15.

الاستعمار وأن الوجود الأوروبي بالمنطقة ذو بعد إنساني قائم على تحضير الشعوب ، وهو ما سنعالجه في المحور الموالي .

2- عبد العزيز الثعالبي ؛ نظرية التخلف والزامية الخضوع

مما عرف عن الظاهرة الاستعمارية هو ثنائية الاحتلال بين قوة السلاح والتغلغل السلمي ، أما الطريق الأول فهو واضح للعيان ظاهر لا بطلان فيه ، وقد بيّنته الحوادث التاريخية مكانا وزمانا ، وأما الطريق الثاني فقد أخذ توجهها أدبيا تجسد في النظريات الأنثروبولوجية والكتابات الأدبية الفرنسية التي أخذت تبرر الظاهرة الاستعمارية وتكرس لفكرة تقبل الاحتلال ، إذا هي كل تلك الكتابات التاريخية والاجتماعية التي جمعت تحت سقف المدرسة الاستعمارية ، وفي الوقت الذي قاومت فيه البلدان المحتلة الطريق الأول -الذي نقصد به العمل العسكري- ظهر كذلك جملة من المقاومين للطريق الثاني ، أي ما نعرفه تاريخيا بالمقاومة السلمية وذلك من خلال الكتابة الصحفية وعمليات التأليف والمحاضرات والنقاشات بهدف دحض تلك الأطروحات الاستعمارية ، وإحياء الهوية المحلية وموروثها الديني والثقافي .

ظهر الشيخ عبد العزيز الثعالبي كمقاوم لهذا التوجه الاستعماري الذي وصف البلاد بالرجعية والتخلف وروج لنظرية إلزامية خضوع المجتمع التونسي للحضارة الفرنسية التي ستتكلل -كما يزعم روادها- بنشر الحضارة وتمدين التونسيين خاصة والمغرب العربي عامة ، ومن بين هذه الكتابات نذكر إيميل فيليكس جوتييه Emile Félix Gautier من خلال كتابه "ماضي شمال إفريقيا Le passé de l'Afrique du nord" ، وستيفان فوزيل Stéphane Gsell من خلال كتابه " التاريخ القديم لشمال إفريقيا Histoire ancienne de l'Afrique du nord" .

يقول الثعالبي في ذلك: " والدعوى الوحيدة الرسمية التي تتذرع بها الحكومة الفرنسية أمام العالم المتمدن...هي في القول أن الشعب التونسي غير قادر على حكم نفسه وأن فرنسا...تحملت عنا مؤقتا أمانة سلطاتنا الاجتماعية وهي ستردها لنا عندما نبلغ سن الرشد"⁷ وأمام هذا التشبيه الذي طرحه الثعالبي يوضح لنا الفكر الاستعماري الذي يرى في تونس -حكومة وشعبا- بلدٌ غير قادر للسير على خطى الحضارة والتمدن وإنما الحماية الفرنسية جاءت للتكفل بهذا الأمر .

7 عبد العزيز الثعالبي ، تونس الشهيدة ، تر: سامي الجندي ، ط1 ، دار القدس ، مصر ، 1975 ، ص ، ص:

206 ، 207 .

ولنفرض أن نظرية الرجعية والزامية الخضوع صحيحة وأن الاستعمار الفرنسي هو رسالة حضارية تسعى لتمدين المجتمع التونسي والمغاربي ككل فلماذا ترانا نجد كل هذا القهر والاستبداد على حساب الكرامة والحرية هكذا يقول الثعالبي وقد طرح هذه المفارقة العجيبة مؤكداً أن الاستعمار لم يكن في يوم من الأيام وسيلة تحضر وتطور يقول: "إذا كانت الوصاية على بلادنا هي حقاً، ذات هدف وحيد مخلص ألا وهو: النهوض بنا إلى مستوى الأمم القادرة على حكم نفسها، فإن على فرنسا واجبا يقضي بتعديل أساسي دون إبطاء للنظام الذي نخضع له والذي ما استمر حتى الآن إلا على حساب كرامتنا، بالاضطهاد والخوف والظلم وهي الطرق التي لا تحيد عنها الأنظمة المبنية على الاستبداد والطغيان"⁸ ويقول كذلك: "هل يريدون امتداد ونشر الثقافة والحضارة الفرنسية؟ إننا لنعتقد كما يعتقد كل عاقل أن القسوة والنهب والظلم... لا تجعلنا نحكم لمصلحة الحضارة الفرنسية"⁹.

إن أقلام المدرسة الكولونيالية عملت على الترويج للاحتلال الفرنسي ومحاولة شرعنته بالأدلة التاريخية الباطلة لهذا كان الاحتلال يعتبر نفسه امتداد للوجود الروماني، ولذلك تعتمد الفرنسيون الاستعماريون في كتاباتهم على إهمال التاريخ المحلي والتعظيم من التاريخ الإغريقي والروماني ومحاولة إرجاع منبع الحضارات ككل إلى الإغريق والرومان، وأمام هذا الواقع التاريخي المزيف ردّ الشيخ الثعالبي على تلك المغالطات فأسهب الحديث عن التاريخ القديم للمنطقة المغاربية وتجسد هذا في مقالاته التي نشرها في جريدة "الإرادة التونسية"، والتي تم جمعها في كتاب حمل عنوان "مقالات في التاريخ القديم" يقول: "لم يكن الرومان جادين ولا صادقين في إبداء عطفهم للأفارقة، وإنما كانوا ينظرون إلى تقدم قرطاجة وما بلغت إليه من بعد الصيت ونباهة الذكر نظر المغشي عليه من الموت"¹⁰، كما أبرز أهمية وفضل الحضارات المشرقية والفينيقية على الحضارات الغربية وقد أدرج ذلك تحت عنوان "تأثير الروح العربية في اليونان"¹¹.

وكما كانت للشيوخ وقفات في التاريخ القديم، لم يفته أن يعرج على التاريخ القريب ونقصه بذلك فترة قبيل الحماية الفرنسية، منذ المنتصف الثاني للقرن التاسع عشر، حيث عرفت البلاد تطورا سياسيا وهي المرحلة التي تميزت بظهور الحركة الإصلاحية التونسية

8 نفسه، ص: 207.

9 نفسه، ص: 201.

10 عبد العزيز الثعالبي، مقالات في التاريخ القديم، جمع وتعليق: جلول الجريبي، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت-لبنان، 1986، ص: 21.

11 نفسه، ص: 108.

والتي تأثر بها كل من رجال الدولة والبايات ، وفي هذه الفترة يذكر الشيخ النظام الدستوري الذي أقامته البلاد وتطور المؤسسات والنظام البرلماني¹² ، و إصلاح التعليم الزيتوني وتأسيس معهد الصادقية إضافة إلى المدارس الإيطالية والفرنسية¹³ ، و انتعاش الاقتصاد المحلي خاصة الزراعة والتجارة¹⁴.

إن الوقوف على هذه الحثيات التاريخية عند الثعالبي سواء التاريخ القديم منها أو القريب يعكس لنا توجهه نحو إثبات الوجود الحضاري لتونس ، وتقنيذ نظرية الخلف والخضوع.

3- أبعاد الوجود الفرنسي في تونس بين الخطاب الكولونيالي والرؤية النقدية للثعالبي

نجد الثعالبي من خلال كتاباته يحاول أن يفرض واقعا لتونس وهي الأمة الحرة المستقلة ذات السيادة ، لذلك يتهجم على الاستعمار الفرنسي ويعتبر ما يسمى بالحماية هي سبب خراب الوطن وسبب لكل المشاكل في البلاد عكس ما ذهب إليه المفكر الجزائري مالك بن نبي الذي اعتبر الاستعمار الفرنسي عاملا مهما في يقظة الأمة بعد سباتها ورغم السلبات الكبيرة لهذه الظاهرة الإمبريالية إلا أنها بشكل آخر تعطي للشعوب المحتلة يقظة لضرورة الوقوف من جديد¹⁵ ، وتوقف الثعالبي —كما أشرنا سابقا- على الحياة السياسية والاقتصادية والثقافية للبلاد فترة القرن التاسع عشر وما عرفته من تطور¹⁶ ، ثم إن نزول المستوى وتدهور الوضع منذ العقد الثاني للقرن العشرين إنما هو بسبب الاحتلال الفرنسي ، لذلك فإن الثعالبي يحاول إرجاع الصفة الحقيقية لمسمى الحماية من خلال تقديمه جملة من المطالب عبر كتابه تونس الشهيدة مست هذه المطالب الحرية الشخصية ، في السكن والتعبير والصحافة ، والمساواة أمام القانون ، وتنظيم السلطات العامة والاهتمام بالتعليم¹⁷ ، جاءت مطالب الثعالبي هذه تماشيا مع المنطق الاستعماري الذي يرى نفسه وسيلة حماية وتحضر ، ووقف الثعالبي كذلك على النظام القضائي واعتبره سبب الخراب الاجتماعي وانتشار الظلم والنهب لذلك طالب بإقامة سلطة قضائية مستقلة ، وتكون السلطة القضائية تابعة للسيادة التونسية ، وتحويل المجلس العقاري

12 عبد العزيز الثعالبي ، تونس الشهيدة ، مصدر سابق ، ص:30.

13 نفسه ، ص ، ص: 56 ، 57.

14 نفسه ، ص: 88.

15 فتحي بوعجيلة ، ثورة النخبة الإصلاحية التونسية ، واقعها ، أفكارها ، راهنتها ، ط1 ، مطبعة قوبعة ، تونس ، 2014 ، ص ، ص: 184 ، 185.

16 عبد العزيز الثعالبي ، تونس الشهيدة ، مصدر سابق ، بدءا من ص:30.

17 عبد العزيز الثعالبي ، تونس الشهيدة ، مصدر سابق ، ص: 209-211.

المختلط إلى محكمة تتألف من قضاة حقيقيين مستقلين وإصدار مجموعة من المجالات القانونية¹⁸، إن هذه المطالب تضع السلطة الفرنسية أمام أمر الواقع وتكشف حقيقتها ما إذا كانت حماية بالفعل أو فقط شكل من أشكال السطو والاحتلال.

رغم الموقف السلبي الذي اتخذته الثعالي من الاستعمار إلا أنه يجدر الإشارة أنه قد تسلسل في اتخاذ هذه الرؤية السياسية تجاه الحماية الفرنسية، فالثعالي الناقم على الوجود الفرنسي هو نفسه الذي كان يثق في فرنسا قبل الحرب العالمية الأولى ويراها حد منبع لمبادئ الحرية والعدالة، فمن خلال كتابه "روح التحرر في القرآن" أثنى على الفرنسيين وجعل منهم جنود الحضارة ويذكر فضل فرنسا على تحضر مصر، غير أن هذا الخطاب اللين سرعان ما غيره الثعالي واعترف بالانخداع أو إقرار بفشل استراتيجية استدراج فرنسا وخدمتها لاستجلاب المكافأة بمنح التحرير¹⁹ خاصة بعد التضحيات التي قدمها التونسيون لجانب فرنسا في الحرب العالمية الأولى لينتهي الأمر في الأخير بخديعة لا مكافأة بعدها يقول الثعالي: "خلال الحرب العالمية التي أرهقت العالم المتمدن ضحي شعبنا وهو الذي لا يكاد يعد مليوني نسمة، تضحية تفوق طاقته فقدم 65000 مقاتلا جرح وقتل منهم 45000 و30000 عاملا" ويقول "وكانت لنا ثقة لا تتزعزع بأن مصيرا جميلا سوف يفتح بابه نصر الحق والعدالة الأميين وذلك بتحقيق مبدأ تقرير الشعوب الحر الذي وعد به رجال الدولة العظام أمام الله وأمام الإنسانية المتمدنة"²⁰.

عرفنا موقف الثعالي من الوجود الفرنسي، وقد بين أبعاده الحقيقية فهو اعتبره عملية استعمارية بعيدة عن مفهوم الحماية، ثم بين الثعالي بعده الديني الصليبي يقول: "... مهما كان مقتنا وحزننا فإننا عامدون إلى جلاء الطبيعة الحقيقية للاستعمار الفرنسي في تونس: إنه صراع حتى الموت، غزو صليبي ضد مجتمعنا"²¹، وباعتبار الثعالي شاهد عيان للظاهرة الاستعمارية بتونس فإنه توقف على بعض الأحداث والحقائق التي عاشها ليوضح لنا هذا البعد الصليبي للاستعمار، ففرنسا مثلا ومن خلال قوانينها بتونس لم تكن تشترط الجنسية الفرنسية لكي يستفيد أي شخص من منفعه سوى أن يدين بالدين الصليبي، لأن المسلم في نظرهم ينتمي لجنس دنيء وارتقاؤه لمستوى المواطنة الفرنسية يتطلب التخلي عن الإسلام أولا، وذكر لنا الثعالي مثلا لذلك الشخص الفرنسي

18 فتحي بوعجيلة، مرجع سابق، ص، ص: 202، 203.

19 نفسه، ص، ص: 195، 196.

20 عبد العزيز الثعالي، تونس الشهيدة، مصدر سابق، ص: 199.

21 عبد العزيز الثعالي، تونس الشهيدة، مصدر سابق، ص: 126-127.

المسلم الذي منعت عنه حق الاستفادة من تشريع أرض الاستعمار لسبب وحيد وهو دينه الإسلامي²².

وفي الإطار نفسه وقف الشيخ عبد العزيز الثعالبي على الممارسات الاستعمارية بتونس والتي تعبر عن طبيعة الوجود الفرنسي ، وبأنه حملة صليبية وليست نظام حماية ، إذ وقف الشيخ على البدايات الأولى للاستعمار الفرنسي والتي عرفت حملة من عمليات استهداف الأوقاف الإسلامية التي تشكل العمود الفقري للمساجد والمدارس الإسلامية²³ ، ومما تطرق إليه أيضا هو عملية مصادرة الأراضي من طرف الإدارة ، وهو الأمر الذي يستشف من خلاله الثعالبي الروح الصليبية للاستعمار إذ أن عملية الاستلاء تلك هي بشكل مباشر تقضي على المعالم الإسلامية وتحل محلها الكنائس ودور العبادة الصليبية يقول: " وفي كل يوم تمحي قبة أو جامع لتقوم كنيسة ، أما إذا خطر لجماعة تونسية قريبة من مركز ما من المراكز بناء بيت للعبادة ، جابهت خاطرتهم قرف (الأهلين جميعا) ونفي الجامع إلى مكان قصي عن الأمكنة المأهولة"²⁴

وربط الثعالبي بين الروح الصليبية والسياسة التعليمية والتي جاءت في بوتقة واحدة لتضرب الدين الإسلامي وامتصاص ذاتيته وفتح المجال للمدارس التبشيرية التي تعمل تحت إمرة الكنيسة²⁵.

وللقضاء على الكيان السياسي كذلك يرى الثعالبي أن سياسة التجنيس هي سلاح آخر مكنته فرنسا في أقطار شمال إفريقيا ، وجاءت هذه السياسة من منطلق إرجاع المنطقة إلى الأصل النصراني الخاضع للكنيسة قبل الإسلام ، لذلك تم انعقاد المؤتمر الأفخاريستي²⁶ الذي جاء لإعطاء صبغة مسيحية للبلاد²⁷.

22 نفسه ، ص: 126.

23 نفسه ، ص: 120.

24 عبد العزيز الثعالبي ، تونس الشهيدة ، مصدر سابق ، ص: 126.

25 أحمد طرفاوي ، حقائق وخلفيات الظاهرة الاستعمارية في تونس من خلال كتاب تونس الشهيدة للشيخ عبد العزيز الثعالبي ، مجلة قضايا تاريخية ، المدرسة العليا للأساتذة ببوزريعة ، ع 10 جوان 2018 ، ص: 186.

26 المؤتمر الأفخاريستي : هو مؤتمر مسيحي كاثوليكي انعقد بقرطاج ما بين 07-11 ماي 1930 ، في ظاهره ممارسات دينية وطقوس مسيحية اقتضتها عادات الكنيسة وفي باطنه هجوم استعماري على الهوية العربية الإسلامية والشخصية التونسية العربية المسلمية ، حيث نظمت فيه احتفالات بمناسبة خمسينية الاحتلال انتظم فيها آلاف الصبيان والفتيات بأزيائهم التي تحمل شارة الصليب وتجوب الشوارع. للمزيد حول للمؤتمر ينظر: حفيظ طبائي ، البناء الوطني وتحديات الاستقلال ، ط 1 ، الدار التونسية للكتاب ، تونس ، 2011 ، ص: 92-92.

ومن أبعاد الحماية التي تحدث عنها الثعالبي البعد الاستغلالي الإرهابي ، حيث لا يمكن للإدارة أن تستغل خيرات البلاد وثرواتها دون ما القضاء على هذا الشعب تحت سياسة الإرهاب المنظم ، حيث أن الشيخ في كتابه يجرّد فرنسا من مصطلح الحماية فبعد عرضه للحال التي أصبحت عليها البلاد التونسية بعد الدخول الفرنسي يقول: "إن هذا ليذكرنا بشكل مخيف بحكم القياصرة الإرهابي"²⁸، إن النظام الإرهابي والاستغلال الفرنسي سيفصله الثعالبي كذلك من خلال السياسة الاقتصادية التي تبنتها الإدارة والتي استهدفت من خلالها الأراضي الزراعية يقول في مقدمة هذا الباب: "آلة الاقتصاد التونسية هي أيضا خدعة كلفتنا إقامتها 550 مليون"²⁹ واستنزفت طاقتنا الاقتصادية وكان الأفضل لنا أن نقول الآلة الاقتصادية"³⁰ وبلغ الأرقام يذكر الشيخ الإحصائيات والأرقام التي تبين استغلال فرنسا للأرض التونسية من خلال إنشاء المستوطنات للمعمرين والمشاريع الاقتصادية والخدمات التي تصب في صالحهم.³¹ وركز الشيخ على القطاع الزراعي بشكل كبير كونه العمود الفقري للحياة المعيشية للتونسيين ، إضافة للقطاع الصناعي ثم تحدث عن التوجهات الاستعمارية الرامية إلى إفناء شعب بكامله من خلال عرضه لمقارنة بين نسب الولادات والوفيات بتونس ما بين 1910-1914 حيث فاقت نسبة الوفيات نسبة الولادات³² هذا من جهة ومن جهة أخرى يذكر التضحيات التي قدمها التونسيون في الحرب العالمية الأولى تحت ضغط الاستعمار الفرنسي الذي استغل الطاقات التونسية في حربه تلك منذ 1904 بفرض التجنيد الاجباري على التونسيين التي راح ضحيتها الآلاف في جبهات القتال.³³

ففي الفترة الممتدة ما بين 1914 و1919 جندت حوالي 80 ألف تونسي كجنود وقاربة 30 ألف كعمال بالمصانع والحقول ، وقدر عدد القتلى والمفقودين أثناء الحرب بـ15 ألف أي حوالي 20 بالمئة من المجندين يضاف إليهم ما بين 8 آلاف و10 آلاف من الجرحى والمشوهين بالمقابل قامت بالإدارة الاستعمارية بافتكاك الأراضي وتوزيعها على

27 نفسه ، ص:187.

28 عبد العزيز الثعالبي ، تونس الشهيدة ، مصدر سابق ، ص:42.

29 الظاهر أنها عملة الفرنك ، نظرا لأن الثعالبي يتحدث بها في أكثر في موضع بكتابه المذكور.

30 عبد العزيز الثعالبي ، نفسه ، ص:131.

31 عبد العزيز الثعالبي ، تونس الشهيدة ، مصدر سابق ، ص ، ص: 131 ، 132.

32 أحمد طرفاوي ، مرجع سابق ، ص:191.

33 عبد العزيز الثعالبي ، نفسه ، ص: 162.

المعمرين³⁴، وقد وظف الثعالبي مصطلح (الاستعمار)³⁵، بدل (الحماية) التي تعكس التطور والأمن في المفهوم المنطقي، لدلالاتها الواقعية فالوجود الفرنسي بتونس أبعد ما يكون عن الحماية، إنما هي ظاهرة إرهابية استغلالية.

4- التجربة الدستورية عند الثعالبي: بين النخبوية والرهان على الوحدة الوطنية

لكي نفهم دور الثعالبي في الحزب الدستوري والقضايا التي تناولها خلال هذه المرحلة من حياته لا بد أن نفهم بدايات النضال السياسي للشيخ، إذ بدأ بروزه السياسي داخل الحركة الوطنية التونسية مع حركة الشباب التونسي منذ 1907 وهي حركة ثقافية إصلاحية اجتماعية وسياسية³⁶، أو كما عرفت هذه الحركة بحركة تونس الفتاة على شاكلة تركيا الفتاة والتي تزعمها نخبة من الوطنيين على رأسهم الأخوين باش حانية (أو باش حامة)، غير أن لها جذور قبل ذلك فهي التي كانت متمثلة نهاية القرن التاسع عشر في جماعة جريدة الحاضرة والجمعية الخلدونية وجمعية قدماء الصادقية وحزب التقدم والذي دعا إلى مشاركة الوطنيين في حكم البلاد تحت ظل الحماية، ومع مطلع القرن العشرين يساهم بشكل فعال في هذه الحركة وترأس إدارة تحرير جريدة التونسي ذات التوجه الإصلاحي³⁷.

يجد الباحث في تاريخ الرجال أن الشيخ الثعالبي كان قد تشبع بفكر تحرري فمنذ بداياته الأولى ناضل ضد نظام الحماية الجائر، ورغم أن بداياته كانت ذات مطالب إصلاحية إلا أن الفكر التحرري سيتوغل شيئاً فشيئاً إلى شخصية هذا الرجل بعد اقتناعه بفشل التعامل مع الاستعمار بمبدأ الإصلاح، ومن خلال حركة الشباب التونسي المذكورة

34 مجموعة من المؤلفين، تونس عبر التاريخ، ج3، مركز الدراسات والبحوث الاقتصادية والاجتماعية، تونس، 2005، ص:83.

35 وإن كان هذا المصطلح يحمل دلالة إيجابية في مفهوم الشريعة الإسلامية وذلك من باب التعمير وتطبيق أمر الله في الأرض واستعمار الأرض لقوله تعالى: (هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا) هود الآية:61، غير أن الدلالة التاريخية للاستعمار هي كل تدمير وتخريب ونهب واستغلال للشعوب الضعيفة، فكانت كلمة "الاستعمار" أكثر وحشية وتعبيراً من كلمة "الحماية".

36 عبد العزيز الثعالبي، تاريخ شمال إفريقيا منذ الفتح الإسلامي إلى نهاية الدولة الأغلبية، تح: أحمد بن ميلاد ومحمد إدريس، تق: حمادي الساحلي، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1990، ص:8.

37 صلاح العقاد، المغرب العربي في التاريخ الحديث والمعاصر، الجزائر تونس المغرب الأقصى، ط6، مكتبة الأنجلومصرية، مصر، 1993، ص:323؛ ومجموعة مؤلفين، تونس عبر التاريخ، ج3، "الحركة الوطنية ودولة الاستقلال"، مركز الدراسات والبحوث الاقتصادية والاجتماعية، تونس، 2005، ص:65.

أنفا آزر الثعالبي طلبة الزيتونة من أجل تحسين حالتهم المادية وإصلاح التعليم الزيتوني 1910 ، وأشرف على تحرير جريدة التونسي باللغة العربية التي صدرت في 1909 ، والتي جاءت كدعم لجريدة التونسي فرنسية اللسان ، ثم انضم الشيخ كعضو في اللجنة التونسية لنجدة المجاهدين الطرابلسيين (ليبيا حاليا) في 1911 ، وانضم كذلك إلى اللجنة الدائمة للعمال التونسيين بالترامواي إثر حادثة الترام الشهيرة 1912³⁸ ، وغيرها من النشاطات وهو الأمر الذي اضطر سلطة الحماية إلى إبعاد الشيخ وثلة من المناضلين خارج تونس ليستقر به الحال بالأستانة ولم يعد لتونس إلا بعد سنتين.³⁹

عقب الحرب العالمية الأولى ونظرا الظروف الداخلية والخارجية اقتنعت حركة الشباب التونسي بضرورة بعث هيئة سياسية وثقافية ذات توجه إصلاحي تنادي بمجموعة من المطالب وتكون ممثل الشعب التونسي لدى الإقامة العامة ، فتأسس الحزب الدستوري التونسي بعد مجموعة من الاجتماعات واللقاءات بالعاصمة ربيع 1919 خلص خلالها الوطنيون إلى ضرورة إيجاد دستور يضمن الحقوق للشعب التونسي⁴⁰ ، وقد وافق الثعالبي على التعاون مع هذه الفئة من الشباب ورغم أنه كان استقلالي التوجه منذ حركة تونس الفتاة إلا أننا نجده يدعم مطالبهم التي تركزت أساسا على إقامة دستور ، لذلك سَظْهر فكرة الاستقلال بعض الخلافات بينه وبين الأعضاء الآخرين داخل الحزب من حين لآخر ، وتلخصت أهداف الحزب في إنشاء مجلس تشريعي يشترك فيه الأوروبيون والتونسيون وإنشاء حكومة وجيش واستعادة الأراضي المصادرة ، وكلها مطالب أدنى مما كان مقتنع به الثعالبي وخطه في كتابه **تونس الشهيدة** ، فهذا التعارض الفكري بين ما كان يؤمن به الثعالبي من فكر تحرري وبين ما جسده في واقع الحزب جعلت الكاتب صلاح العقاد يطرح هذه الإشكالية ويجب عليها بقوله أن الثعالبي قَبِلَ بهذا التوجه المعتدل عند

38 **حادثة الترامواي**: تعود جذورها للحقد الإيطالي على التونسيين بسبب دعمهم للطرابلسيين (الليبيين) ، ذلك أن شركة الترام الإيطالية المتواجدة بتونس كانت تعامل الشعب التونسي بنوع من العنصرية واللامساواة مقابل الجاليات الأوروبية الأخرى ، وقد كان سائقي الترام يتعمدون السرعة الكبيرة داخل الأحياء وهو الأمر الذي أضفى في الأخير إلى مقتل طفل تونسي ، وأمام هذا الواقع اتفق التونسيون على مقاطعة هذه الشركة ، وطالت المقاطعة إلى أن وصلت حد إفلاس الشركة لولا تدخل الحماية الفرنسية التي بذلت مجهودات لإنقاذها ، وقبل بعدها الوطنيون إنهاء المقاطعة مقابل مجموعة من الشروط. ينظر: عبد الله الطاهر ، مرجع سابق ، ص: 50

39 عبد العزيز الثعالبي ، تاريخ شمال إفريقيا... ، مصدر سابق ، ص: 8.

40 مجموعة من المؤلفين ، تونس عبر التاريخ ، مرجع سابق ، ص: 86.

الدستوريين نزولا عند رأي الجماعة⁴¹، حفظا لمبدأ الوحدة وتجنب الفرقة وتشيت الجهود كان لزاما على الشيخ الثعالبي أن يقبل ببعض التنازلات ضمانا لمواصلة النضال وتماشيا مع أمر الواقع.

وإضافة إلى ذلك قد يكون الثعالبي الاستقلالي المذهب قبل بالمطالب المعتدلة عند جماعة الحزب الدستوري علما منه أن هذا الحزب قد سطر مطالبه في شقين الأول مطالب عاجلة وهي كانت ذات بعد إصلاحي وأخرى آجلة وهي الاستقلال الكامل والمحافظة على حكم الأسرة الحسينية ووحدة شمال إفريقيا⁴².

يعتبر الثعالبي الباعث لهذا الحزب فهو واضع قانونه الأساسي وهو الذي كان يباشر باستقبال الوفود وشرح مبادئ الحزب ويجيب عن الرسائل، وازداد نشاطه وبفضله تأسست أزيد من مئة شعبة دستورية⁴³، ورغم أن الثعالبي وحركته هذه كانت تستمد مبادئها من المرجعية الدينية والثقافة الإسلامية إلا ذلك لم يمنعها من الاستعانة باليساريين لكسب الدعم وتدويل القضية، حيث رفعوا نداء إلى الاشتراكيين الفرنسيين طالبوا فيه بحرية الشعب التونسي في نطاق عصبة الأمم، وتم تكليف أحمد السقا والثعالبي لتمثيل الحزب بباريس والاتصال بالصحافة والأوساط اليسارية لا سيما الحزب الاشتراكي الذي عزم على عرض القضية التونسية على مجلس النواب⁴⁴. هذا الأمر يعكس لنا الذهنية الانتهازية إن صح التعبير عند الوطنيين التونسيون جملة والثعالبي تفصيلا، حيث الاستفادة من النفوذ اليساري لتحقيق المطالب لم تؤثر عليه الخلفيات الدينية والسياسية عندهم.

رغم أن الحزب الدستوري كان موحدا من حيث الخلفية الدينية والثقافية الإسلامية إلا أن ذلك لم يمنع من وجود خلافات سياسية وإيديولوجية تطورت لتتجسد في انشقاقات لبعض الأعضاء عن الحزب، وغدّت الإدارة الاستعمارية هذه الاختلافات لتحقيق مبادئها المعروف "فرق تسد"، وبتشجيع من المقيم العام "لوسيان سان Lucien Saint" انشق حسن القلاطي وأسس الحزب الإصلاحي في أفريل 1921، وانشق فرحات بن عياد في 1922 وأسس الحزب المستقل، وظهرت جامعة عموم العمال التونسيين في 1924. ولعل من بين القضايا التي كانت محل خلاف بين الوطنيين هي قضية الحزب الدستوري بين

41 صلاح العقاد، مرجع سابق، ص: 326-327.

42 مناصرة يوسف، الصراع الإيديولوجي في الحركة الوطنية التونسية 1934-1937، دار المعارف، سوسة-تونس، 2002، ص: 07.

43 عبد العزيز الثعالبي، تاريخ شمال إفريقيا...، مصدر سابق، ص: 9-10.

44 مجموعة مؤلفين، تونس عبر التاريخ، مرجع سابق، ص: 86.

النخبوية والجهادية ، إذ أننا نجد قيادة الحزب تحترز من الطبقات الشعبية ولا تحذب العمل المباشر والالتحام بالجهاديين و تميل إلى النقاشات النظرية الفكرية تستلزم بالضرورة مستوى علمي رفيع وحنكة سياسية ، وهكذا يبقى الحزب في إطار نخبوي ، في الوقت الذي انتقد فيه بعض الوطنيين هذه السياسة على رأسهم محمد علي الحامي الذي أسس جامعة عموم العمال ، ويقول الطاهر حداد عنه في ذلك: "ولطالما كان يتأثر ويلوم كثيرا من وضعوا أنفسهم في مركز قيادة الأمة كيف لا يجتمعون بالناس إلا إذا كانوا في ناد خاص بأسلوب خاص على منبر خطابة وهو قدر لا يكفي للتعارف الحقيقي بينهم وبين الأمة بل ربما جعلها تشعر بتفوق عليها واستحقاقهم للحياة أكثر منها فتتكسر نفسها أمامهم ، وهذا ما يجعلها بعيدة عن إدراك معنى الحرية الحقيقية التي يجتهدون هم في شرح معناها"⁴⁵ ، هكذا يتضح لنا من هذا القول اقتناع الثعالبي بخصوصية الحزب بالنخبة والمثقفين وإهمال الطبقات الجهادية لذلك نجد الحامي وجماعة من التونسيين ينتقدون هذه السياسة بل ستكون من الأسباب التي تستفحل الأزمة لاحقا بين أعضاء اللجنة التنفيذية والديوان السياسي.

لا يمكن الجزم بالأحقية لرؤية الثعالبي تلك لكنه وُفق في هذه النظرة إلى حد ما ، فالبنظر للظروف التي كانت تعيشها تونس ووطأة الاستعمار الشديدة وغيرها من العوامل تجعلك تحاول فهم ذهنية المجتمع التونسي في ذلك الوقت ، وقد كان همه الأكبر حينها هو رغيف خبز أو شيء من الإصلاحات التي تحسن وضعه لا غير ، وهو الأمر الذي يحول دون نضج فكره ليرقى إلى مستوى المطالبة ببرلمان أو حكم ذاتي أو جيش قوي أو حتى يقتنع بالحرية المطلقة ، فلذلك تعمدت قيادة الحزب أن يُسيّر هذه الهيئة النخبية والمثقفين الذين تتجاوز مطالبهم الغايات البيولوجية فقط ، وحقيقة هذه الفلسفة قد تجسدت في بعض النظريات السيكلوجية التي تجعل من الجهاديين والطبقات الشعبية غير قادرة على البناء والرقى ، فمثلا نجد المفكر والفيلسوف النمساوي ومؤسس علم النفس سيغموند فرويد يؤيد هذه الرؤية يقول: "إن الجموع خاملة وعديمة الذكاء ، ولا بد من سيطرة الأقلية لبناء الحضارة"⁴⁶ ، وهذه الأقلية هي التي يقصد بها الثعالبي النخبة.

ومع مطلع الثلاثينات ظهر مجموعة من الشباب داخل الحزب المتخرجين من المعاهد والكلية الفرنسية ، ولا شك أن خلفيتهم التكوينية والعلمية تجعل منهم أوروبيو

45 فتحي بوعجلية ، مرجع سابق ، ص:230-231 ؛ ومجموعة مؤلفين ، تونس عبر التاريخ ، المرجع سابق ، ص ، ص:90-91.

46 إبراهيم الأندلسي ، فلسفة الفلسفة ، دار إي كتب ، 2019 ، ص:77.

الثقافة ، فأسسوا جريدة العمل التونسي ، وسرعان ما ظهرت بوادر الخلاف بينهم وبين أعضاء الحزب الآخرين⁴⁷ ولاسيما بعد الاجتماعات التي عقدها هؤلاء الشبان المعروفين بجماعة العمل التونسي أو الديوان السياسي حيث اجتمعوا في 12-13 ماي 1933 عرف بمؤتمر نهج الجبل و02 مارس 1934 المعروف بمؤتمر قصر الهلال⁴⁸.

وبغض النظر عن الحثثيات التاريخية وبالتركيز على مواطن الخلاف الفكري بين الفريقين الممثلة في الثعالبي ورفقائه أو المعروفون باللجنة التنفيذية وبورقيبة ورفقائه والمعروفون بجماعة العمل التونسي أو الديوان السياسي نجد هذه المواطن تتلخص فيما يلي:

- أعضاء اللجنة التنفيذية أغلبهم ذوي ثقافة عربية إسلامية وفكر شرقي متدين ، بينما جماعة العمل التونسي غريبو الثقافة وعلمانيون ، وفي الوقت الذي رفض الفريق الأول فصل الدين عن نشاطهم اعتبر الفريق الثاني أن هذا الأمر هو إغراق للقضية التونسية بالوحد⁴⁹ ، إذا فالاختلاف الأول كان دينيا.
 - في الجانب السياسي طالب أنصار الديوان السياسي بالتعاون مع الفرنسيين ، والحفاظ على روح الحماية واتباع برنامج ينتهي في الأخير إلى تحقيق الاستقلال الذاتي أو المشروط⁵⁰ في الوقت الذي اقتنعت فيه اللجنة التنفيذية بالاستقلال التام⁵¹.
 - اجتماعيا كانت اللجنة التنفيذية تتوخى الحذر والتريث ويتركز نشاطها على الفئات النخبوية وتتجنب العمل المباشر ، كما أشرنا سالفا ، في الوقت الذي اقتنعت فيه هيئة الديوان السياسي بضرورة اقحام الجماهير في العمل السياسي والعمل المباشر أي الاعتماد على القاعدة الجماهيرية⁵².
- وهكذا بدأت فجوة الخلاف تتسع بين الفريقين واحتارت الجماهير أي الفريقين خير مقاما وأحسن نديا ، واتهم بورقيبة أن جماعة الثعالبي من خلال مطلبها الاستقلال التام ستعود بالشعب إلى الوراء وترمي به في غياهبات الجهل ، واعتبر جماعته امتداد للحزب الدستوري والحقيقة أنهم أسسوا حزبا لا يمت بصلة أصلا لبرامج الحزب الدستوري

47 مناصرة يوسف ، مرجع سابق ، ص:13.

48 فتحي بوعجلية ، مرجع سابق ، ص:236.

49 مناصرة يوسف ، مرجع سابق ، ص:13-14.

50 فتحي بوعجلية ، مرجع سابق ، ص:237.

51 مجموعة مؤلفين ، تونس عبر التاريخ ، مرجع سابق ، ص:109.

52 نفسه ، ص ، ص: 103 ، 109.

المعروف ، وكما ذكرنا فقد اقتنعوا بمطلب الاستقلال الذاتي والاعتماد على خطة خذ وطالب وتقوية العلاقات مع فرنسا يقول بورقيبة: " وإذا كنا لم نأس بعد من فرنسا التي كونتنا ورسخت في نفوسنا المبادئ المكونة للإنسان الأفضل ، فلأننا مقتنعون بأن أصواتنا لم تبلغ بعد مسامع شعب فرنسا" ويقول: "إننا نريد من فرنسا أن تحكم مع الشعب التونسي وليس مع الأعيان" ودعا هذا الأخير لتكوين ما سماه بمجموعة الاتحاد المتوسطي تحكمه فرنسا وتكون تونس مستقلة ومرتبطة بالإمبراطورية الفرنسية ، هذا في الوقت الذي ندد الثعالي بسياسة الاستعمار ودعا لتوحيد الأقطار المغاربية فإليك وجه المقارنة بين الدعوة الإسلامية والوحدوية والدعوة العلمانية الأوروبية⁵³.

بلغ الصراع ذروته بين الفريقين ، لكننا نجد محاولات مشرفة من الثعالي وفي الحقيقة هي تعكس فكره الوحدوي ، لذلك نشير هنا أن الثعالي بعد أن ألقى عليه القبض قبل الثلاثينات وبعد خروجه من السجن سعى لتوحيد صفوف حزبه وفشل في ذلك نظرا لانقسام الحزب وانسحاب العديد من الأعضاء كما أشرنا سابقا ، وأمام تصدع الحزب والظروف الداخلية هاجر إلى المشرق وزار بلدانها ما بين 26 جويلية 1923 إلى غاية جويلية 1937⁵⁴ ، أي قرابة 14 سنة ، ليجد الصراع قد تأجج أكثر فقام بخطوات توحيدية بين أنصار اللجنة التنفيذية وحركة بورقيبة ، ولهذا الغرض أسس لجنة تحت رايته يوم 03 أوت 1937⁵⁵ ، تسمى "لجنة النظر والبحوث السياسية" تتركب من هياتين ، اللجنة التنفيذية والديوان السياسي ، غير أن هذا الأخير رفض الاقتراح من أساسه وكان البورقيبيون يعتبرون أنفسهم امتداد للحزب الدستوري وأن جماعة اللجنة التنفيذية غير معترف بهم داخل الحزب منذ مؤتمر قصر الهلال 1934⁵⁶.

كان الثعالي يرى لنفسه مكانا للتونسيين كان يقول: "أنا أب التونسيين جميعا وسأستأنف مع الجميع العمل الذي تركته منذ خمسة عشر عام"⁵⁷ لذلك رأى الثعالي ضرورة القيام بحملة ترويجية لفكرة الترابط بين التنظيمين فقام بجولات لمختلف المناطق غير أن بورقيبة كان قد وسع نفوذه لمختلف المناطق لذلك كانت الجماهير تتعرض

53 مناصرة يوسف ، مرجع سابق ، ص ، ص: 16 ، 25 ، 28.

54 فتحي بوعجلية ، مرجع سابق ، ص: 232.

55 مجموعة مؤلفين ، مرجع سابق ، ص: 109.

56 مناصرة يوسف ، مرجع سابق ، ص: 32-33.

57 سالم لببض ، في تذكّر عبد العزيز الثعالي ، موقع العربي الجديد ، <https://www.alaraby.co.uk/> في تذكّر عبد العزيز الثعالي -مُحدّثاً وإصلاحاً ، تاريخ الدخول: 25-2025-07.

للثعالبي بالإهانات والشتم وتنادي بحياة بورقيبة⁵⁸، بل بلغ الأمر لمصادمات عنيفة وسقوط ضحايا⁵⁹.

وهكذا فشلت حركة الثعالبي التي تسعى للوحدة والاستقلال التام أمام بورقيبة الذي سعى لسحق اللجنة التنفيذية وتنفيذ برنامج السيادة المشتركة مع فرنسا وظهر التفوق للديوان السياسي الذي انتصر بقاعدته الجماهيرية وكسبه للطرق الدينية المعارضة للإصلاح⁶⁰ وحمل الثعالبي مسؤولية هذا الفشل إلى جماعة الديوان السياسي ووصفهم في تقريره المنشور في 30 سبتمبر 1930 تحت عنوان "الكلمة الحاسمة" بالعصاة بسبب محاولتهم قتله ببلد ماطر ونعتهم بأنهم "نكبوا الأمة في سياستها، وطعنوها في سمعتها، وضحو بمصلحتها العليا في سبيل شهواتهم الدنيئة" وخير العودة للعمل الفكري كتابة وتأليفا وإلقاء الدروس على ثلة من النخب وطلبة الزيتونة إلى أن وافاه الله⁶¹

الخاتمة:

نخلص في الأخير إلى مجموعة من الاستنتاجات فنقول أن الشيخ عبد العزيز الثعالبي رجل قد مزج بين شخصية المصلح والزعيم والسياسي والشيخ والواعظ، ذلك أنك تجد فيه الفكر المشرقي الإسلامي والمرجعية الدينية والثقافة المعاصرة والتوجه الحديث، تجد فيه المناضل ضد الاستعمار، والفيلسوف وعالم الاجتماع، وعموما بعد قراءة ضمنية يمكن القول ما يلي:

- تخضع بعض المواقف السياسية للثعالبي لقانون المرحلية، فالثعالبي الذي كان يؤمن بالحماية الفرنسية ويثق في فرنسا في مرحلة ما، تغير موقفه ليصبح ناقما عليها بعد أن كثر الاستعمار عن أنيابه وسال لعبابه، ففرنسا تتلاعب بالشعوب وتغير سياستها المخادعة مع تغير الزمن.
- يوضح الثعالبي المفاهيم ويضع النقاط على الحروف، فالحماية حسب مفهومها عند أنصار المدرسة الكولونيالية، ماهي إلا استعمار ونهب وإرهاب واستغلال وحرب صليبية حسب الثعالبي، إذا هي كل شيء سوى الحماية ولم تكن حماية في يوم من الأيام.
- عرفت التجربة الدستورية عند الثعالبي بروز صراعات أيديولوجية تعمقت شيئا فشيئا لتصل حد الصراع والانشقاق كقضية (النخبوية والجماهيرية)، ففي الوقت الذي

58 نفسه، ص:35.

59 مجموعة مؤلفين، تونس عبر التاريخ، مرجع سابق، ص:35.

60 مناصرة يوسف، مرجع سابق، ص:44.

61 سالم لبيض، مرجع سابق.

كان يرى فيه بعض الوطنيين ضرورة الالتحام مع الجماهير والنزول للطبقات الشعبية ، فضل الثعالي البقاء على الحزب في إطار نخبوي راقى.

● فشل مبدأ النخبوية كان واضحاً في الأخير ، فبورقية وأنصاره أثبتوا نجاعة مبدأ النزول للجماهير وكسب أكبر قدر من تأييد الجماهير ، إذا فالنخبوية حالت دون استمرار المشروع السياسي والإصلاحي لدى الثعالي.

● تعكس جهود الثعالي مدى تأثره بالفكر الوجداني محلياً ومغاريباً ، وهذا لعلمه بتأثير الوحدة وقوتها في استرجاع السيادة ومجابهة الاستعمار.

المصادر والمراجع:

1. أحمد طرفاوي ، "حقائق وخلفيات الظاهرة الاستعمارية في تونس من خلال كتاب تونس الشهيدة للشيخ عبد العزيز الثعالي" ، مجلة قضايا تاريخية ، المدرسة العليا للأساتذة بوزريعة ، الجزائر ، ع 10 جوان 2018 ، الصفحة من ص: 184 إلى ص: 206.
2. الأندلسي ، إبراهيم ، فلسفة الفلسفة ، مصر: دار إي كتب ، 2019.
3. الثعالي ، عبد العزيز ، تاريخ شمال إفريقيا منذ الفتح الإسلامي إلى نهاية الدولة الأغلبية ، تحقيق: أحمد بن ميلاد ومحمد إدريس ، تقديم: حمادي الساحلي ، بيروت-لبنان: دار الغرب الإسلامي ، ط 1 ، 1990.
4. الثعالي ، عبد العزيز ، تونس الشهيدة ، ترجمة: سامي الجندي ، بيروت: دار القدس ، ط 1 ، 1975.
5. الثعالي ، عبد العزيز ، مقالات في التاريخ القديم ، جمع وتعليق: جلول الجريبي ، بيروت-لبنان: دار الغرب الإسلامي ، ط 1 ، 1986.
6. الطاهر عبد الله ، الحركة الوطنية التونسية ، سوسة ، تونس ، دار المعارف للطباعة والنشر ، ط 2 ، د.س.
7. العقاد ، صلاح ، المغرب العربي في التاريخ الحديث والمعاصر ، الجزائر تونس المغرب الأقصى ، مصر: مكتبة الأنجلومصرية ، ط 6 ، 1993.
8. بن أبي الضياف ، أحمد ، اتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان ، م 2 ، ج 4 ، تونس: الدار العربية للكتاب ، المنار ، د.س.
9. طبائي حفيظ ، البناء الوطني وتحديات الاستقلال ، تونس: الدار التونسية للكتاب ، ط 1 ، 2011.
10. بوعجيلة ، فتحي ، ثورة النخبة الإصلاحية التونسية ، واقعها ، أفكارها ، راهنتها ، تونس: مطبعة قوبعة ، ط 1 ، 2014.
11. سالم لبيض ، في تذكّر عبد العزيز الثعالي ، موقع العربي الجديد ، <https://www.alaraby.co.uk> في-تذكّر-عبد-العزيز-الثعالي-مُجدّداً-وإصلاحياً ، تاريخ الدخول: 2025-07-25.
12. مجموعة من المؤلفين ، المعجم الجامع في تراجم العلماء وطلبة العلم المعاصرين ، متوفر إلكترونياً فقط على المكتبة الشاملة ، <https://shamela.ws/book/2080> ، تاريخ الدخول: 2025-07-15.

13. مجموعة من المؤلفين ، تونس عبر التاريخ ، ج 3 ، الحركة الوطنية ودولة الاستقلال ، تونس: مركز الدراسات والبحوث الاقتصادية والاجتماعية ، 2005.
14. محجوبي ، علي ، انتصاب الحماية الفرنسية بتونس ، تونس: سراس للنشر ، 1986.
15. مناصرية ، يوسف ، الصراع الإيديولوجي في الحركة الوطنية التونسية 1934-1937 ، سوسة-تونس: دار المعارف ، 2002.
16. Eric Toussaint, "Debt: how France appropriated Tunisia," CADTM, <https://www.cadtm.org/Debt-how-France-appropriated>, accessed September 26, 2025